

العشق واحتياجات المعنى

ويؤثر أن جماعة من المتكلمين وأهل الآراء والنحل، اجتمعوا يوماً بمجلس يحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد، فطلب إليهم أن يتحدثوا في الحب وطبيعته وسببه، فقال علي بن الهيثم: الحب ثمرة المشاكلة، وقال أحد الخوارج: إنه لا يكون إلا بازدواج النفسيين وامتزاج الشكليين، وقال علي بن منصور الشيعي: إنه لا يكون إلا من ناحية المطابقة والمحاجة في التركيب، وقال أحد شيوخ المعتزلة: إنه نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة؟!؟ (الحب العذري عند العرب: د. شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، ط١، 1999، ص12)

عند موضوع الحب، ليس عليك سوى أن تسترخي، وتخلص عن التعريفات النفسية والفلسفية والكلامية وأي ادعاءات ثقافية أخرى بأن في مقدورها شرح المصطلح، وتوجه إلى الشعراء وحدهم؛ فهم الذين سيصلونك بجزء من مفهومه وأنك مضطجع على أريكة من شوق. باعد بين يديك وكأنك تزيح الهواء الثقيل الذي يجب المعنى، وبما ت ساعهما تكون المسافة لمقدار التباين بين الرؤيتين الثقافية-الفلسفية والشعرية. فلدى الفلاسفة والمتكلمين لا تجد سوى مصطلحات غامضة، وبعض من مصطلحات مُنفرة كـ "المصباح العاطفي"، أو "الرضيع الزنان" والذي هو مآل الحب و نتيجته، ولو ن من حيل الطبيعة للحفاظ على الجنس البشري كما يحاول تفسير تلك العاطفة الفيلسوف الساخر والمتشارم الألماني شوبنهاور عند وقوفه على نتيجة الحب وأثره وليس على بواعته وانقاده شعلته. فالعشق لديه ليس سوى "وهم عاطفي" يزول بمجرد «الانشغال بالطفل الرضيع الذي لا يكف عن تأريفهم في مهد يصير هو القبر لزوجين عابثين»؛ فيلهون بحذاه المزین متفاخرین بما يفعلونه ويهددون به أمن المارة»؟!؟ أما من نظر إليه بإيجابية، كها يدغر مثلاً، فهو تحدث عن أثره في النفس وليس عن كنهه وتشكل طاھرته بقوله «أن الحب يمتلك القدرة على أن يجعل الإنسان يتحلى أمام ذاته، وذلك عندما يكون هناك كيان إنساني آخر يعهد إليه بنفسه، وحينها ليس بمقدوره ولا استطاعته أن يوقف ذلك المد».

تلك إذن هي الرؤية المادية عن الحب، أو كما توصف بأنها "فلسفة مصففي الشّعَر" ، أما عندما نذهب إلى القصيدة ونختبر المعنى برؤيتها "الوردية" الأنثوية، لشاعرتين عربية وفرنسية، فنجد النقاش لذلك المفهوم وإن لم نحصل على المعنى كاماً .

نبتدئ بالشاعرة الفرنسية آنا دونُواي - حتى لا يذهب عنا السياق الأوروبي - ونستطلع تجربة الحب "الناضج" لسيدة خيرته بذائقه تجتهد في وصفها بالرغم أنها أثناء محاولتها لشرح تلك التجربة لا تمنحك سوى إشارات وظواهر على الصفة والهيئة. فالمعنى المباشر مستحيل لفراادة موضوع الحب وتعاليه الروحي، وأيضاً لأن مهمة الشعر ليست الشر والتنطير بل التلویح بالمعنى: «إبني ممثلة بالحب، بالاندفاع / وأتصوّر برأحة طيبة / وقد منج اللازورد خيوطه في جسدي / ويدو فجأة أمام نظرتي المندهشة / أن ما أزهر ليس هو المرج / بل عيناي اللتان تنظران إليه / حتى إبني لو أردت إغماض عيني / لبقيت أرى فيهما الشمس والوردة».

هذا هو أثر الحب، حيث تماهي الشعور الروحي "المبهم" مع ما يمكن أن تضيفه المخيلـة ويـمـطـنـع دـاـخـلـهـا من صـورـ يـحـتـفـي بـهـا الـوـجـدـانـ وـيـبـرـزـهـاـ فـهـذـاـ الشـعـورـ الـغـامـضـ وـالـمـشـاـبـهـ فـيـ أـثـرـهـ لـسـرـيـانـ الـحـيـاـةـ فـيـ الـأـشـجـارـ وـتـبـرـعـ الـزـهـورـ عـنـدـ قـدـومـ الرـبـيعـ فـيـ مـفـهـومـ الشـاعـرـةـ آـنـاـ دـوـنـوـاـيـ هـوـ نـفـسـهـ لـكـ بـمـعـنـىـ مـخـتـلـفـ لـدـىـ الشـاعـرـةـ السـعـودـيـةـ هـدـىـ الـمـبـارـكـ،ـ وـإـنـ كـانـ بـقـرـعـ الشـابـةـ الـمـراهـقةـ عـدـيـمـةـ التـجـربـةـ وـالـتـيـ تـسـارـعـ إـلـىـ وـالـدـتـهـاـ لـمـسـاـعـدـهـاـ فـيـ أـرـمـتـهـاـ لـفـهـمـ طـبـعـتـهـ:ـ

«أَمَاه / حَلَّـ بي ما حَلَّـ بِـيـاـمـرـأـةـ العـزـيزـ / أـقـطـعـ يـدـيـ؟ـ!ـ / هـائـمـةـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ وـلـيـرـنـيـ الـكـفـيـفـ،ـ وـلـيـسـمـعـنـيـ الـأـطـرـشـ؟ـ!ـ».

فما يتشاربه في المعنى لكلا الشاعرتين أنها قد تماه باعتباره شعوراً واضح السطوع للعين الداخلية للمحب وليس انتباعاً خارجها وعصي على الشرح كفكرة مجرد إلا لمن خبره من قبل. وهذا هي الشاعرة هدى المبارك تعذر من

«لم أعرف الحب! / لا أعرفُ ما هو لـي / هواءٌ مـلأ به رئتي، / صوتٌ مـن عصرٍ قديم.. / صوتٌ يجمع كل عشاقـ

هكذا إذن، فنحن لم نظرر بتفسير واضح للحب سواء عند الفلاسفة أو الشعراء وجميعهم يحومون حول الحمى ولا يلحوظونه، أحاديث عن ظاهرة الحب وأثره ليس إلا، وحتى عندما نأخذ بنصيحة الباحثتين في فلسفة الحب، ماري لومونبيه وأود نسولان، بقولهما «إن معنى الحب يمكن إصايتها لدى شعراء الأغانى الشعبية أكثر منه لدى الفلاسفة والمثقفين»، فلن نصل إلى أبعد مما قالته الشاعرتين؛ آنا دونُواي وهدى المبارك. بل قد يزداد معنى الحب انعلاقاً وغموضاً لدى بعض الشعراء الشعبيين، مثل النص التالي لحسين المحضار: «سر حبي فيك غامض سر حبي ما انكشف / إيش خلاني أعشق فيك والعشقة تلف/ إيش أوقعني في شباكك وأنا عيني تشوف / لا تعذبني وإلا سرت وتركت المكلا لك/ إذا ما فيك معرفة».

في النهاية وبالرغم من جميع الأقوال عن الحب، يبقى أنه ينطبع بظاهرة غريبة؛ وذلك أن شكوى من يعانيه وألمه، لا نستطيع أن نتلقاها إلا ونحن في حالة جذل وابتسمة بالرغم من تعاطفنا الشعوري والوجوداني مع ألمه القاتل ومعاناته الشديدة، وهو بخلاف مواقفنا الإنسانية والعاطفية لتجاه مصائب الآخرين! فهل هذا الشعور ناتج عن غواية الشعر عندما حول المعاناة تلك للشعراء إلى أغنية مموسة تطرب لها الآذان كل حين؟